الفصل الخامس

حقائق فى التربية

هل حدة الذكاء وسعة العلم تغنيان عن طيب النفس وشرف الخلق ؟ كلا ، إننا نمقت الذكىّ الشرير ، ونوْجَل من معاملته ! ونعتقد أن النفس الصغيرة لاتزيدها المعرفة الكبيرة إلا قدرة على الأذى ، وطاقة على الإساءة !

ومن الخطأ أن نحسب الدين معرفة نظرية أو قراءة طويلة !

إذا لم يكن الدين كبْحا للهوى ، وامتلاكا للطبع فلا خير فيه ولا جدوى منه .

وقد أكد القرآن الكريم أن تزكية النفس الإنسانية هى الغاية من شتى التكاليف والتزكية المنشودة هى التربية الصحيحة ، هى تصفية المعدن الإنسانى من شوائبه ، وجعل الغرائز كلها تحت رقابة العقل المؤمن فلا تطغى ولا تجمح ..

والناظر فى الحضارة الحديثة يراها ارتقت كثيرا فى ميادين الكشوف الكونية ، واستغلّتْ المطابع فى نشر ألوف الألوف من الكتب والصحف ، واستغلت الكهرباء فى إنشاء دور الإذاعة المختلفة ، وفى تسخير الأقمار الصناعية لمزيد من الاطلاع والتعليم ـ فهل كان ذلك تقدما إنسانيا حقا ؟

إن الأثرة الفردية والجماعية ضَريَتْ مع هذا التقدم وتفاحشت الشهوات والمظالم ، وظَهر الفساد فى البر والبحر .. واتسعت دائرة الإلحاد والتديُّن الجاهل ، مما يجعلنا نقرأ الآية الكريمة : « أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »[1] ؟

---

(١) سورة الجاثية : ٢٣ .

إنه لابد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه حتى تصلح ! عمل مرهق جادٌّ يكسر الرغبة الجامحة ، ويُخضع الإنسان لوصايا الرحمن ! « فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ »[1] .

وأشكال العبادات لاتصنع ذلك التغيير الحاسم .. إذا لم تمح الصلوات الحسد والحقد من نفسك ، فلا صلاة لك ، السجود الحقيقى ليس انطواء الجسم أمام الله بل هو انقياد القلب لهداياته ووصاياه .

الخيط المعقّدُ لاينحلّ ويسترسل إلا بفكِّ عُقدِه عقدةً عقدة ، ولا تفيد فى ذلك تغطية ولا تحلية ، والنفس المعقدة لا تعود لفطرتها ولا تستقيم مع سجيتها إلا بعد ذهاب عللها ، وعودة العافية إليها ...

فإذا كانت العبادات استعانة بالله على بلوغ هذا الهدف ، وإذا قبلها الله ، وأعان الضارع فى ساحته فأصلح نفسه ، وأقام عوجه ، فالعبادة صحيحة مقبولة ، وإلا .. فالوضع لم يتغيّر..

إننى أراقب نفسى وأراقب من حولى فأرى أن بيننا وبين الصلاح الحق بُعْدًا ، سببه أننا قد نعرف الدواء ولانحسن التداوى ولانصبر على مطالبه ..

وهناك من يجهل أنه مريض ، ويقاوم من يطلبون له الشفاء بل قد يزعم أنه هو الطبيب الخبير بكل شىء !

فلنعد مرارا إلى فهم الآيات الكريمة « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا »[2] .

إننى لا أستطيع الفصل بين تقوى الله وحسن الخلق ! ربما عاملنى شخص ما بلطف ، ونظر إلىّ بوجه طليق ، وهذا شىء أحمده له ..

لكن ما العمل إذا كان هذا الشخص لايذكر لله عهدا ، ولايشكر له نعمة ، ولايدين له بولاء ؟ هل أعدّ هذا الشخص فاضلا لأنه أحسن معاملتى على حين أساء معاملة ربه ؟

---

(١) سورة النازعات : ٣٧ ـ ٤١ .

(٢) سورة الشمس : ٧ ـ ١٠ .

أعرف أن الحضارة الحديثة أغفلت الجانب الإلهى وأسقطته من كل حساب ، لكن هذا المسلك من أوزارها لا من مناقبها ..

الإنسان الخيّر لاينقسم على نفسه فيكون طيبا هنا وخبيثا هناك بل تسود خلاله صبغة واحدة ووجهة ثابتة ..

نحن نعدّ أعداء المجتمع البشرى مجرمين لأنهم يعتدون وينحرفون والقرآن الكريم يثبت الصفة نفسها على من يخاصم الله ويلحد فى دينه « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ »(١) .

وعندما نسمع نصح لقمان لابنه ، نراه يمزج بين حسن معاملة الله وحسن معاملة الناس « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »(٢) .

إنها سفالة بعيدة القرار أن يكفر امرؤ بالله ويعالن بحربه ، ثم ينتظر من الناس التقدير لأنه ابتسم لهم بعدما تجهّم لسيده ! مايقبل ذلك أحد !

ومعنى الإيمان بالله أن أكون أهلاً لمعرفته وجديرًا بالانتماء إليه، ولايصلح لذلك إلا من هذب نفسه ، وصان مسلكه ، إنك لا ترشح نفسك لصحبة كبير إلا إذا أصلحت هيئتك ، وزكيت سيرتك ، فكيف ينتمى إلى الله مُسِفّ فى أحواله ، مسىء فى أعماله ، مريب فى خلاله ؟!

الواقع أن بعض المنتسبين إلى الدين يُنَفِّرون منه بما يلاحظ عليهم من انحلال وهبوط .. والتدين الفاسد عدوان مضاعف على الدين الحق ، وهو جريمة ارتكبتها أمتنا فى العصر الأخير.

لابد من جهاد دائم للنفس حتى تبرأ من رذائل الأثرة والهوى والعدوان .. وأى دين يبقى مع بقاء هذه الآفات ؟!

يقول الله تعالى : « وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ »(٣) ولا حرج فى دفاع المرء عن

---

(١) سورة السجدة : ٢٢ .
(٢) سورة لقمان : ١٧ ـ ١٨ .
(٣) سورة النساء : ١٢٨ .

مصالحه ، أما أن يخرج من بيته كما يخرج السبع من غابه ، لاهمّ له إلا أن يفترس ويغتال فهذه وحشية ، الحيوان لايفكر إلا فى نفسه وأولاده ، وبعض الناس ينطلقون فى الشوارع لاتملكهم إلا هذه الفكرة ، فهم يتقلون من منحدر إلى منحدر ..

وبعض آخر مشغول بهدم الآخرين ، والبحث عن عيوبهم ، والتسلّى بآلامهم .. ولا أدرى لماذا يتخيل بعض الناس أنه لايبنى نفسه إلا إذا هدم غيره ؟!!

وهناك باحثون عن اللذة ، يمدون أعينهم إلى المكشوف والمستور من العورات ، وقد حسبوا أن من حقهم إشباع شهواتهم لأن الكبت لايجوز ، وحبس الرغبة المحرمة من وصايا الأديان البالية !

وهناك متملقون يقبعون تحت أقدام السادة معلنين الطاعة ومنتظرين الأوامر ليمدحوا هذا ويشتموا ذاك .

إن فقدان التربية السليمة ، والتدين الحق جعل الدنيا جحيما ، وجعل العلاقات البشرية فى الحضيض ..

والحل الفذ أن نعود إلى حقيقة الدين ، فنوثق علاقاتنا بربنا ، ونحسن الصلاة له والخشوع بين يديه ، ونجعل علاقاتنا بالناس محكومة بمعالم التقوى وخشية الله والتأهب للقائه ..

إن الدين فى الغرب نهج لخدمة الرجل الأبيض ، واستغلال ثروات الأرض ، ونسيان الدار الآخرة ، وقد لفحتنا ألسنة من هذه النار المندلعة ، فلنعد بالدين إلى حقيقته ، ولنجعله ربانية طاهرة ، وأخوة مواسية ، وصالحات مبرورة «وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ»(١)

وهناك أمر أجدنى مسوقا إليه وأنا أتأفف لما عرا امتنا ، وهو أمر قد يبدو

---

(١) سورة لقمان : ٢٢ .

علميا ، ولكنه عندى من صميم الأخلاق ، ودعائم التربية ..

* * *

الحضارة لا تبنى بخصام الكون

يستحيل أن تقوم حضارة إسلامية تخاصم الكون وتجهل مفاتحه ، أو تخاصم الإنسان وتجافى فطرته ، لأن القرآن الكريم يبنى الإيمان على فهم الكون ودراسة الإنسان .

ورجال محمد عندما بنوا لكتابهم دولة ، كانوا يسبحون فى بحر الحياة ، ويتعاملون بذكاء مع تياراته ومدِّه وجزره ، أو بتعبير الدكتور « لويس عوض » كانوا علمانيين خبراء بالمادة والمجتمع وشئون الحياة كلها .

سئل الدكتور لويس : هل يحافظ الإسلام حتى يومنا هذا على دعوته الشاملة ؟ فأجاب : كلا ، وإذا كان الإسلام قديما قد استطاع التغلب على بيزنطة فلأنه كان دينا علمانيا أكثر من الدين المسيحى فى القرن السابع ، كان دينا معنيا بأمور الحياة ، كما كان معنيا بالغيبيات والروحانيات ! على حين كان نظام بيزنطة روحانيا مغرقا فى الغيبيات ..

ثم قال الدكتور : ويبدو أن ما تحلم به الجماعات الإسلامية هو الإسلام البيزنطى » !

ولست بصدد التعليق الموسع على كلام لويس عوض ، وإنما يهمنى الإشارة إلى أن التربية الإسلامية الصحيحة تقوم على فقه واسع فى الحياة والأحياء ، فى الأرض والسماء ، فى كل مايؤثر فينا ونؤثر فيه ، حتى لكأن ذلك كله ديننا ودنيانا ، وأولانا وأخرانا .. ثم تسخير مابلغناه بعد ذلك لإرضاء ربنا وكسب آخرتنا ، وفق الآية المعروفة « تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »[1] .

---

(١) سورة القصص : ٨٣ .

يستحيل أن يكون الجهل بالحياة دينا ، أو أن يكون الفشل فيها تقوى ! املك الدنيا بذكاء واقتدار ثم وجهها لإعلاء كلمة الله ، وإعزاز الإيمان ورفع رايته ..

إن من يملك صفرا فى شئون الدنيا لن يكون إلا صفرا فى شئون الآخرة ، وقد رأيت أقواما لاقدم لهم فى آفاق المعرفة يريدون الحديث عن الله ودينه ، فاستغربت جراءتهم وقلت : «ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا»[1] .

كيف يعرف الله أو يعرِّف الناس به جاهل بالعالم ومافيه ، وبالتاريخ ومباهجه ومآسيه ..

إن القرآن كتاب لايرتفع إلى مستواه رجل عادى ، ومحمد لايستطيع التأسىَّ به إلا إنسان فى عقله نور وفى قلبه نور .

لايمكن بناء قاعدة للتربية حتى نحدد أولا موقفنا من الدنيا . أنعيش لها أم للدار التى بعدها ؟ أم للاثنتين معا ؟

إن الحضارة الحديثة انطلقت من قاعدة مهّدها عصر الإحياء من خمسة قرون ، قاعدة بشرية عقلانية ، تدرس السموات والأرض وما بينهما ، وتستكشف أسرار المادة ، ثم تجعل ثمرات الدرس والكشف لخدمة الإنسان !

هل للدين موضع فى هذه الدراسات الجادّه الدءوب ؟ كلا ، لقد وقعت عداوة دامية خسيسة بين العلم والكنيسة . جعلت العلماء يعتقدون أن الدين مرادف للجهالة والجمود ، وأن رجاله أوثان حية رديئة ينبغى الخلاص منها ..

فأين الإسلام عندئذ ؟ لقد انتحر المسلمون فى الأندلس ، وقضى عليهم العفن السياسى والترف الاجتماعى وانشغال العلماء بقضايا جزئية ومسائل جدلية ! لم يكن الأندلسيون فى النصف الثانى من تاريخهم نماذج مقبولة للإسلام ، بل كانوا ينفِّرون منه ، وفقدوا فقدانا تاما خصائص الدعوة والدعاة ..

وهذا البلاء انتقل من الشرق الإسلامى إلى المغرب ، فإن فساد السياسة

---

(١) سورة الفرقان : ٥٩ .

والاقتصاد والعمران تكاثرت جراثيمه ، وتنامت نتائجه حتى قضى التتار على الخلافة المعتلّة ، ثم قضى الصليبيون من بعد على الدويلات الإسلامية فى الأندلس ، والتى كان شغلها الشاغل التنازع على السلطة والثروة ..

صحيح أن الأتراك رفعوا راية الخلافة ، واستطاعوا فى زحف باهر أن يخترقوا شرق أوربا حتى النمسا ، لكن الأتراك كانوا قوة عسكرية ، ولم يكونوا فجرا ثقافيا جديدا ، ولو صحبهم جهاز للتربية والتعليم ، والبلاغ المبين لكان لهم فى الأقطار المفتوحة شأن آخر ! !

إنهم رفضوا أن يتعربوا كما رفض العرب أن يؤثروا على أنفسهم ، وأن يتركوا السلطان لغيرهم ، فكان التوسع الإسلامى خاليا من بذور الحضارة الأولى ، ومن أسباب الحياة الصحيحة ، فسرعان ما انهار ، وانهار العالم الإسلامى بعده ، وأصبح أثرا بعد عين !

أما الأوربيون ، فبعيدا عن الدين قرروا حرياتهم السياسية ، ووضعوا «الوثيقة العظمى»* بعد قتل الملك المستبد ـــ حدث ذلك في انجلترا ـــ.

واشتعلت الثورة الفرنسية ، وكانت هى الأخرى كافرة بالدين ، ووضعت لأصحابها نظاما آخر ، وكانت ثورة تتسم بالبطش وتسرف فى الفتك ..

ثم جاءت الثورة الحمراء مصحوبة بسيول من الدماء ، وألوان من الوحشية ، وقد هدمت الكنائس بعدما فرغت من أهلها ، أما المساجد فقد دفنت أهلها فيها ، ومصاب الإسلام فى الاتحاد السوفيتى يحتاج إلى دراسات واسعة ! !

المهم بعد هذه النظرة الخاطفة أن حضارة الغرب قامت من قرون على الكفر بالله ، وإن كانت قد انتفعت ببعض المخلفات الإسلامية والإنسانية فى نهوضها ..

بيد أن شيئا مثيرا قد حدث مع بدايات القرن الأخير ، فإن الصليبية لعقت جراحها ، وأخذت تقترب من المنتصر ، تتودَّدُ إليه ، وتعرض عونها عليه ، وكذلك فعلت الصهيونية ، واصطلح الجميع على إحراج الرسالة الخاتمة ،

---

* Magna Carta.

والاستيلاء على ميراثها الضخم ، وقد بدأ لكل عين أنه ميراث لاصاحب له ، أو بتعبير آخر لاحارس له ! !

وشعر أتباع محمد بحرب الإبادة تقترب منهم ، ونيات الغدر والفتك تلفح كيانهم ..

واستيقظت نوازع الحياة فى الأمة المنكوبة ، وشرع المدافعون فى ميادين العلم والتربية ، والاقتصاد والعمران ، يتنادون لإنقاذ الرسالة التى أحدق بها العدو من كل ناحية ...

إن البلاء شديد ، ولكن طريق الخلاص منه واضح ، وبقدر مانثوب إلى رشدنا ونستمسك بكتابنا تقوى الحصون ، ويتراجع العادون ..

والأساس تربية صالحة على نحو ما فعل سلفنا الأولون ، فما معالم هذه التربية ؟

التكليف حتى قيام الساعة :

التربية عمل يستغرق العمر كله ، منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل ، ومن الخطأ تصور أنها بناء يتطلب بضعة شهور أو بضع سنين يعقبه استجمام واسترخاء . المؤمن مع نفسه كقائد السيارة يظل يقظا طول الطريق ، وإلا فقد يهلك فى ساعة إغفاء ..

وقد ألفنا فى حياتنا أن نجعل طلب العلم مراحل ، وأن نمنح الدارسين إجازات أوشهادات تدل على مانالوا منه ... فهل التربية كذلك ؟ لا ! إن الأقساط التى ننالها من الاكتمال النفسى لم توضع لها سلالم واضحة ، ولم ترصد لها علامات ، يبدو لأن علم ذلك عند الله وحده أولا ، ولأن التربية ليست مناهج موقوتة ، يقاس تحصيلنا فيها حينا بعد حين ..

إن المرء يجاهد نفسه بالغدو والآصال ، سائرا إلى ربه بثبات ، والسائر إلى الله يترضاه بفعل ما أمر وترك مانهى ، ولايزال سائرا يطوى مراحل حياته ، حتى إذا

قارب النهاية قيل فيه : « ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »[1] .

لقد طابت نفسه كما يطيب الثمر على أغصانه ، ثم يجيء الحصاد فى إبانه ، فإذا نفس تهيأت لسماع النداء الأخير « يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى »[2] .

وتتناول التربية الإنسان من عدة نواح : الأولى شعوره بنفسه ـ أعنى عبادة الذات ـ فالشعور الإيجابى بالذات يكاد يكون حجر الزاوية عند بعض الناس ، وهو أساس الفخر والكبر وحب الظهور ، وطلب الثناء والانسياق مع مطالب الرياء ، وهو مصدر الحقد والحسد والعداوات الممتدة ظاهرة وباطنه ..

والواقع أن الإنسان عندما يدور حول نفسه وحدها ، لايصلح لشىء ولايصلح به شىء ، ولعل ذلك سر اتفاق العلماء على أن أعمال القلوب أهم من أعمال الجوارح . وأن معاصى القلوب أخطر من أنواع العوج الأخرى ..

ولن ينجو المرء من هذا الداء إلا إذا وثق روابطه بالله ، وصفى نيته معه ، وحرص على ابتغاء وجهه وانتظار ماعنده .. وجعل هضم النفس ، واحتقار العاجلة أغلب على سيرته ، وأوضح فى شتى معاملاته ..

ويختلف حب الناس للشهوات اختلافا واسعا ، نعم إنهم متفقون على إجابة غرائزهم البدنية ، بيد أنى لاحظت أن هناك من يحب الطعام ، وهناك من يحب النساء ، وهناك من يحب المال ، وهناك من يحب الشهرة ، وقد يضحى بشهوة فى سبيل أخرى آثر لديه !

والتربية الصحيحة تستبقى من الشهوات القدر الذى تقوم به الحياة ، وتراقب بحذر ما فوق ذلك . وفى تراثنا الدينى معالم مشرقة لهذا المنهاج الذى ينشئ النفوس إنشاء على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ..

وقد تأملت فى التراث الإنسانى الخصب ، الجامع بين الدين والفلسفة

---

(١) سورة النحل : ٣٢ .

(٢) سورة الفجر : ٢٧ ـ ٣٠ .

والأدب ، فلم أجد أغنى ولا أدق ولا أرق من الثروة التربوية التى تركها محمد عليه الصلاة والسلام .

هناك عدة آلاف من الأحاديث المقبولة ، وهناك معالم سيرة إنسانية طهور ، تسبح فى فلك لا يسفّ أبدا ، قد يهوى النجم ولكن محمدا يستحيل أن يهوى ...

وطريق الاكتمال والتسامى هو التزام هذه الأسوة ، والاستمداد الدائم منها . ويتطلب ذلك نوعا من المعاناة والمجاهدة ، يعجز عنها إلا من عصم الله ..

إن التربية ليست وضع البذور فى أرض على رجا مطر يجىء أو لا يجىء ، ولا جهد وراء ذلك ، كلا ، إنها بذر وسقى وتعهد ، ومطاردة للحشرات والأوبئة ، ومتابعة صاحية حتى أوان النضج ..

والمربون هم البيت ـ وأساسه المرأة ـ والمدرسة والمسجد ، والشارع والدولة ، بما ملكته فى العصور الأخيرة من قدرات اقتصادية وثقافية وإعلامية ..

والحق أن الصحابة والتابعين كانوا نتاج تربية نبوية مباشرة ، جعلت منهم الجيل الذى حوّل الحضارة الإنسانية من حال إلى حال ..

وأشعر اليوم بشىء من الأسى واليأس لأننا لانجمع من عناصر التربية ما يجعل أمتنا تنبت فى مغارسها ، وتجدى على رسالتها .. ذاك فى وقت تعربد فيه شياطين الإنس والجن ، ويكاد الهوى ينفرد بزمام العالم أجمع ..

لا بأس أن أقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق ربانية وأخلاق إنسانية ، ولأرجئ الحديث الآن فى القسم الثانى مع أن كليهما ضرورى لصدق الإيمان واكتماله ..

المؤمن الناضج الاعتقاد يتجاوب مع قول الرجل الصالح : «وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ»[1] فمن نضب فؤاده من التفويض إلى الله فقد الأخلاق الربانية ..

والمؤمن الناضج الاعتقاد يتبع هودا وهو يقول لقومه : « إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ

(١) سورة غافر : ٤٤ .

رَبِّي وَرَبُّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ »[1] فمن خلا قلبه من هذا التوكل فقد فَقَدَ دعامة من معالم الربانية ، وانطلق فى الحياة محصورا داخل نفسه .. !

والمؤمن الناضج الاعتقاد يقتنع بقول الله له: « وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »[2] فمن حسب أن أحدا يكشف ضره بعيدا عن الله ، أو أن ذا سلطان يسوق إليه الخير بعيدا عن الله ، فقد تجرّد من الأخلاق الربانية !

والمؤمن يكتفى بنظر الله إليه ، ورقابته عليه ، ويعى بعمق قول الله : « فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا »[3] فمن رمق وجها آخر ، وأمل الخير عنده فقد عرّى عمله عن الإخلاص ، وفقد الأخلاق الربانية ...

وعلماء القلوب شحنوا كتبهم بهذه المعانى ، لأنهم موقنون بأن معاصى القلوب أخطر من معاصى الجوارح ، فهذه المعاصى القلبية سرطان يأتى على الإيمان من القواعد ..

الخلاف الفقهى ليس معصية :

ولقد لاحظت ـ واستغفر ربى وأستعيذ به ـ أن عددا من قادة الثقافة ورجال السياسة ، مبتلون بهذا السرطان ، وأن عبادة الذات والتقوقع فى مطامعها يسيطران عليهم ..

ويشاركهم فى هذا البلاء أذناب يطنّون حول مآربهم ومجالسهم طنين الذباب ..

أمراض القلوب لا الخلاف الفقهى أخطر شىء على الدنيا والدين معاً .

---

(١) سورة هود : ٥٦ .

(٢) سورة الأنعام : ١٧ .

(٣) سورة الكهف : ١١٠ .

ما الخلاف الفقهى ؟ إنه كالخلاف بين المحافظين والعمال فى انجلترا ، أو كالخلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين فى أميركا .. هؤلاء الناس متفقون على الأصول الرئيسية والأهداف العامة ، وربما وتفاوتت أنظارهم فى الترتيبات الداخلية لنظام البيت ..

أما فى أمتنا فقد رأيت الرعاع يبنون العلالى على هذا الخلاف ، ويخرجون منه بنتائج مدمرة ..

لنفرض أن رجلا يتبع أبا حنيفة ولا يتبع ابن حزم ، أو بالعكس ! ما علاقة هذا بالقرب من الله أو البعد عنه ؟ وما صلة هذا بالفسوق أو التقوى ؟ هذا خلاف يحكم فيه بالخطأ أو الصواب ، إنه خلاف عقلىّ فى نطاق محدَّد ، ومن السفه ربطه بحقيقة الدين أو وحدة الأمة ..

فلو تصورت أن مخالفا لابن حزم ـ أيام سلطانه ـ وشى به إلى الصليبيين كى يبطشوا به ، فأنا أعدّ الواشى مرتدّا ، أو هو من سلالة أبى لؤلوة أو ابن ملجم ..

ومثله فى الزيغ من يفضلون أن تحكم أفغانستان الشيوعية ولايحكمها أبو حنيفة ، أو من يسوُّون بين الشيوعيين والأحناف ..

ويوجد متدينون فى عصرنا ينحدرون إلى هذا الدرك من الغباء أو الحقد ، وقد آذوا الله ورسوله بهذا الفكر الوضيع ، وذاك سر حملتى عليهم وضيقى بهم ..

إن الخلاف الفقهى فى ديننا ـ إذا استوفى شرائطه العلمية والخلقية ـ لايسمَّى معصية أبدا ، بل كل مجتهد مأجور بإجماع الأمة ...

والذين يتذرعون بالخلاف فى الفروع للغمز واللمز ، والتمزيق والتفريق جديرون بالتأديب ..

ولا أصدق أن رجلا مؤمنا استجمع الأخلاق الربانية يسفّ إلى هذا المستوى ...

ونتحدث الآن عن الأخلاق الإنسانية كالصدق والأمانة والوفاء والشرف .. إلخ وإنما سميتها كذلك لأنها عامة تشمل المسلمين وغيرهم .

وأضداد هذه الأخلاق هى أركان النفاق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1].

والغريب أن الفجور فى الخصومة ، والعبث بالعقود والعهود ، والاستهانة بالكلمة ، والإضاعة للأمانات ، كلها تكاد تكون عادات مألوفة بين الكثيرين ، وإن المسلمين لايلتزمون بما ورثوا من دين فى ميادين الأخلاق عامة إلا من عصم الله ..

على حين نجد أتباع ملل أخرى يتحرَّوْن فى معاملاتهم ومسالكهم مكارم الأخلاق ، ويترفّعون عن الفوضى والإسفاف والتسيُّب !

وقد قلت : إننى نظرت فى تراث العظماء ، فلم أجد أغنى ولا أزكى ولا أوسع ، ولا أرفع مما تركه محمد فى ميدان الأخلاق ، فما الذى باعد الأمة عن تراثها وزحزحها عن قواعدها ..؟

إن الخلق العظيم لأمة مّا نتاج جملة من العناصر المتماسكة المتكاملة ، تلتقى فيها العقائد والعبادات والأحوال الاقتصادية والسياسية ...

ثم إن الخلق ليس قراءة ورقة ولاسماع درس ، إنه صناعة شاقة ، وتجارب متكررة ، وتكلف مستمر ينتهى بأن يكون ملكة قائمة وصبغة ثابتة .

وقد لاحظت أن جهودا شيطانية بذلت ، ليكون الإيمان عقيما ، بالتأويل والتعطيل المتعمَّدَيْن ..

فقد يكون الإيمان عند البعض كلمة فقط لاعمل معها ! وقد يكون العمل نافلة يزدان بها وقد يستغنى عنها .. وصور العبادات تؤلَّف أسفار فى ضبطها ، أما جوهرها الباطن فقلَّما يُكْتَرث به .

وقد نشأت عن ذلك مفارقات رجحت كِفَّة المجتمعات الكافرة ، وهوت

---

(١) رواه البخاري في الإيمان.

بكفة المجتمعات المؤمنة ! فقول الزور فى ديننا يعادل الشرك : « فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ »[1] .

وقول الزور كبيرة فى قضية صغيرة بين رجلين أو امرأتين ولكننا فى العالم العربى مثلا نصنع انتخابات مزوَّرة بجهاز يشترك فيه عشرات الألوف من الناس ، وتتواصى الأطراف المعنيَّة بقبول نتائجه ، وتسكت الجماهير الغفيرة مُغْضِيةً أو عاجزة ...

وهذا الوضع لاتعرفه أمم علمانية ، تحتقر الزور ، وتحترم الحق ، وتنظر إلى الكلمة المنطوقة على أنها رباط خطير ، وكأنها هى التى نفذت قول القرآن الكريم : « إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ »[2].

إننا فقراء إلى الأخلاق الربانية والأخلاق الإنسانية على سواء ...

وقد أدرْتُ ظهرى لمتدينين قصّروا ثيابهم وتمنَّوْا الموت الزؤام لمن يخالفهم فى أن لحم الجزور ينقض الوضوء ، وأن شهادة المرأة لا تقبل فى الحدود والقصاص ...إلخ

من الأخلاق الربانية والإنسانية بنيت الأمة الإسلامية ، والبناء باق مابقيت هذه الأخلاق ، فإذا وهت تصدع الصرح كله ، وتعرض للضياع .

إن العقائد هى التى تصنع المثل العليا ، والمثل العليا هى التى تهيمن على السلوك وتوجهه ، والعقائد طور للنفس الإنسانية ينقلها من الميوعة إلى الثبات والصلابة ، والأخلاق هى القوالب التى تصاغ فيها حركات المرء وسكناته ، ويستحيل أن يتوفر الاحتراف لأمة لم تستقر عقائدها وأخلاقها ...

وقد شرحنا فى كتبنا الأخرى الإعجاز المحمدى فى تكوين العرب وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، إن هذه السياسة التربوية التى رسمها أمير الأنبياء لاتزال وحدها القديرة على إعادة البناء المتصدع ، وإنقاذ أمة كبيرة من مهاوى الفناء والهزيمة

---

(١) سورة الحج : ٣٠ .

(٢) سورة النحل : ١٠٥ .